الفـــونس دوديه
الأديب الضاحك
للأستاذ أنور لوقا

منذ قرون ثلاثة ، تساءل « لابروبير » وساءل قراءه لماذا نخجل من البكاء فى المسرح إذا شهدنا قصة محزنة ، على حين أننا ننفجر بالضحك إذا شهدنا قصة هازلة ؟ لماذا لا نرسل الدمع كما نطلق الضحك ؟ أو لماذا لا نكتم الضحك كما نحبس الدمع ؟ أهى طبيعتنا أميل بنا إلى الضجيج بالفكاهة منها إلى التفجع للحزن ؟ أم أننا نخشى أن تختلط قسمات وجوهنا وتتشوه صورتنا أمام الناس إذا بكينا ؟ فإن منظر الواجم المنتحب أروع وأجلّ من منظر الماجن المقهقه ! لعله تحرج إذن من الظهور بمظهر التأثر والحنان والضعف ، لا سيما إزاء موضوع خيالى غير واقعى يسوؤنا أن نعترف لسوانا بأنه يخلبنا ويخدعنا . ولكن المرء لا يتأثر على أى حال إلا لأن الحقيقة قد مست قلبه ، أو تمثيل الحقيقة ، وما يقاوم البكاء والضحك جميعاً ، ولا يسفه «المخدوعين» بالقصة إلا شرذمة من المتحذلقين . لقد كان علينا إذن أن نذرف الدمع فى الملعب على مرأى من الناس ، وأن نسمع جمهور المسارح يموج أحياناً بالنواح كما يجلجل أحياناً بالضحك ! ...

وأكبر الظن فى تعليل هذه الملاحظة الطريفة أن الضحك — كما يقول برجسون — ظاهرة اجتماعية ، تنشأ بين عدد من الناس ، أما البكاء — ولا ندرى ما رأى برجسون فى البكاء — فظاهرة فردية تنبع من صميم قلب المرء ، أى أن الفكاهة « اتجاه إلى الخارج » والحزن « اتجاه إلى الداخل » إذا صح فهم هذا التعبير :

من أين يأتيك الضحك ومن أين يأتيك البكاء ؟ ... أنت لا تضحك من تلقاء نفسك ، هيهات ، ولكنك قد تحزن وقد تبكى إذا خلوت إلى نفسك . وأنت لا تكاد تمسك عن الضحك والتندر والمزاح كلما ضمك مجلس أو لقيك صديق ، ولكنك لا تجرؤ على أن تبسط أشجانك أمام جماعة من الناس ، لا سيما إذا ضعفت الألفة بينك وبينهم . فأنت تريد بالتضاحك أن تشرك الآخرين فى ملاحظة ساخرة لاحظتها ، ولاستهزائك برذيلة أو عيب وظيفة اجتماعية هى عقاب تلك الرذيلة أو تقويم هذا العيب . أما الحزن الذى يستولى عليك حين ترى مشهداً فاجعاً ، فما هو إلا تأثرك بالمأساة ، واستقبالك لها ، واستئثارك بشطر منها لنفسك . الحزن إذن شىء تأخذه لنفسك لا لغيرك ، وتحتفظ به لك وحدك ولا تعرضه على سواك . وكثيراً ما يبيت سراً من أسرارك تجتره فى ضميرك وتدفنه فى وجدانك ويمنعك الحياء من أن تبوح به للآخرين ، فإذا ناجيت به خلاً حميماً فلأنك تجد فى هذا الخل مرآتك أو بقيتك ، أى أن حزنك لا يخرج عن نطاقك الخاص على كل حال . ومن هنا قلنا إن الحزن اتجاه إلى الداخل بمعنى أنه شعور داخلى ، باطنى ، خاص لا تكلف فيه ولا عناية ، ويكون فى أنقى حالاته عند المنطوى على نفسه ، والضحك واتجاه إلى الخارج بمعنى أنه تهريج مع الناس ، وانبساط هو ضد الانطواء لفظاً ومعنى ، وسخرية ترى أهدافاً قريبة أو بعيدة ، وتكلف اجتماعى ميدانه العالم الخارجى قبل كل شىء .

وقد كان ألفونس دوديه رجلا رقيق الشعور عميق التأثر ، لا يفصل الأدب لحظة عن الحياة (راجع العدد ٨٤٦ من الرسالة : الشاعر فى الشارع) .

كان فى أدبه كما كان فى حياته ، قيثارة مرهفة الأوتار . ها هو ذا ، تهز نفسه مأساة صغيرة أو كبيرة ، فيأتى إلينا والدمع يجول فى أجفانه ، ويفتح لنا قلبه يناجينا بها مناجاة إلف صادق ، ثم يحس عبراته تنسجم كلما أفاض فى قصته ، فينظر حوله بمقلتيه البليلتين ، ويرانا متأثرين ، فيفيق ، ويغمره لون من الحياء ، ويكاد يخجل ويندم ، ولكى يستر ضعفه يبادر إلى إلقاء نكتة سريعة والابتسام لها ... على أن هذا كله يتم فى لحظة قصيرة ، فيلتقى الحزن والمرح فى عبارة واحدة ، وتمتزج الدمعة والابتسامة فى حديثه دائماً .

هذه الفكاهة الخفيفة اللاذعة فى أدب دوديه هى قناع الحنان وستار الإحسان ، لأن كاتبنا الساحر حيى ، يتجنب أن يستمطر مآقى جلسائه أنهار الدمع إعلاناً عن رحمته بالأشقياء وبره بالبائسين . إنه يكره التكلف والإسراف . وقد أغرق أتباع روسو فجر القرن التاسع عشر فى سيل من الدموع ، وأصبح الكاتب لا يبكى إلا ضماناً لرواج كتابه ، والممثل لا ينتحب إلا استغلالاً لمشاعر النظارة ،

حتى لقد نفر الفرنسيون منذ ضحى القرن التاسع عشر من إظهار العاطفة وأمسوا يعتبرون البكاء نفاقا والعويل أضحوكة واستدرار الدمع فناً بالياً مبتذلاً . لهذا كانت لابتسامة دوديه قيمة الوقاية من وباء . وهي وقاية طبيعية تشهرها السجية الخالصة ويشهرها الحياء الجم في وجه التكلف البغيض . بل إن شمشمة الحزن بشيء من المرح فن عميق ، بعيد المرمى ، خليق بأن يعد من تردد الحزن في نفس القارىء ، إذ يتركه مختلجاً بالتأثر بدلا من أن يذيبه حسرات ويسحقه بالكمد .

وهذا هو الفرق بين حزن دوديه وحزن معاصريه من أدباء المدرسة الطبيعية المادية (Maturalistes) — أمثال إميل زولا . فهؤلاء يستنبطون مشاهد عنيفة، ويصفون آلاما قاسية، ويقصون لنا ما استطاعوا بشعور بارد كثيف من التشاؤم الأسود الحالك. تقرأ قصصهم فتؤزنا وتثيرنا ، وتظل تقيمنا وتقعدنا ، حتى ترهقنا بالألم والثورة ، وتكتم أنفاسنا في آخر الأمر تحت كلكل القدر المشئوم الذي يذهب البطل ضحيته . على أننا لا نكاد نرثي للبطل ولا نكاد نشفق على أصحابه، فهم قوم جبابرة ملاعين ، كأنهم قُدوا من صخر، وكأنهم خلقوا للعذاب، وإنما تروعنا بشاعة البؤس ، وتفزعنا رهبة المصير . فننسى الأشخاص جميعاً ، ونفكر فيما وراءهم ، وتنتهي أفكارنا إلى سخط على الحياة وحقد على القدر ويأس وقنوط . ولا كذلك عاطفة دوديه ؛ فإنها تفيض هذا الشعور الجائع الناقم الممض . إنها نزعة مستبشرة إلى الخير ، إنها نظرة عين وامقة تفتقد الصغار وترفق بهم ، إنها إخاء وحنان ، إنها أحضان رحيبة مفتوحة ، عزاء للبائسين والمساكين ، بكاء معهم وابتسام لهم . فليس يحرك عاطفتنا إلا شقاء يحيق برجل شبيه بنا، نستطيع أن نتعرف فيه أنفسنا دون أن ننفر من موقفنا وسلوكنا إذا قمنا مقامه ، ويشتد عطفنا وتزداد شفقتنا حين يعبر عن هذا الشقاء رجل شبيه بنا يحس الإحساس ويحسن التعبير عما يحس، باللفظ أو الإيماء أو الصمت . ويالمناهل الشعور الإنساني الكريم التي تتدفق في أقاصيص دوديه ! بيد أن دوديه يعرف كيف يشجينا دون أن يجلل الحياة أمامنا بالسواد والشؤم واللعنة . إنه غني عن المشاهد العنيفة والمواقف المثيرة . وأين حياتنا التي نحياها من تلك النوازل الهائلة التي لا تبقي ولا تذر ؟ وأما هذه التوافه التي يهملها الكبار والمتكبرون ، والتي تعج بها أيامنا ولياليها ، فهي بعينها ما يلتمسه دوديه وما يعنى بتقديمه لنا (راجع العدد ٩ ٨ من الرسالة : الشيء الصغير) .

أمن دمع هذا الكاتب تنبع ابتسامته؟ فإن ابتسامته بدورها لا تفيض! ليست سخرية دوديه بالشائكة ولا الحادة ولا الخبيثة ولا المريرة. ليست كسخرية لابروير أو ڤولتير أو أناتول فرانس . ولا هي هزل أجوف عماده بديع اللفظ والتلاعب بالألفاظ ، وإنما هي تهكم حي ، عذب ، خصب ، ينال المعاني والمواقف والأشخاص . بل إننا نبالغ في إطلاق كلمة السخرية على فكاهة دوديه، إنها مزاح بريء ، ميل إلى العبث من طفل كبير يلمح عيباً في بعض الناس أو ضعفاً في بعض النفوس فيضحك له ملء فيه ويضحكنا معه ، ولكن هذا الطفل الكبير يرى في نفس الوقت وراء الكلمة أو الحركة التي كشفت له ذلك العيب المضحك أو ذلك الضعف المضحك وجه إنسان دائما ، وجه أخ مسكين ألمه من آلامنا وبؤسه من بؤسنا ومصيره كمصيرنا ، ومن هنا تجتمع الدمعة والابتسامة في وجه الفونس دوديه ، وتأتلقان ، ولا تفترقان قط ، وهل حياتنا إلا مزاج متصل من هذه وتلك ؟

ولقد سأل ليون دوديه أباه ذات يوم عن سر قدرته وبراعته في ولوج قلوب الآخرين والتعبير عنها، فأجابه إجابة ضافية ، قال :

« لست يا ولدي ميتافيزيقيا كما تعلم ، ولكن يبدو لي ، من خلال جميع المذاهب، أن الفلسفة وإن كانت نافذة النظر في مشاكل العقل والفكر والذكاء ، إلا أنها أوليـــة بدائية قاصرة في كل ما يتصل بالشعور .

مازال الشعور يا بنيّ عالماً غامضاً مجهولاً مليئاً بالهوّات السحيقة . ألم يكن كل مجهود ديكارت وسبينوزا مجرد محاولة لإرجاع الشعور إلى العقل ، والتماس حلول منطقية جافة للمسائل العاطفية.

أما أنا فليس لي إلا خبرتي ، دعمها بعض الأحلام . بيد أن خبرة شخص واحد هي خبرة الناس جميعاً ، ما دمنا أفرادا يمتاز كل منا عن صاحبه بنظم دقيق خاص من ملكات عامة .

والشعور الإنساني يبدو لي ضربا من محيط دائرة، كل عنصر فيه إنما هو صورة مختصرة للمجموع ، وما الرحمة الفردية والألم